الجذور الفلسفية، دور ليو شتراوس، والحرب على العراق[1]

كَنَث آر. واينشتاين

في أعقاب الحرب العراقية، لم تتعرض سمعة أي مثقف سواء في التيار الرئيسي من وسائل الإعلام الأوروبية أم في المنابر الإعلامية اليسارية بأمريكا، للتشويه والتلطيخ، مثل سمعة أستاذ مادة الفلسفة السياسية بجامعة شيكاغو ليو شتراوس. فشتراوس هذا وُصف بأنه القوة الدافعة إلى الحرب، المثقف النخبوي القابع وراء الكواليس والدائب على الوعظ والتبشير بسياسة القوة والخداع، والملك – الفيلسوف المتربع على عرش حركة المحافظين الجدد. إن ماري ويكفيلد Mary Wakefield، مساعدة رئيس التحرير في السبكتيتور Spectator كتبت في الديلي تلغراف، في وقت سابق من هذا العام[2]، بعد اتهام توني بلير وبول ولفوفيتز بالكذب ما يلي:

«إنني مستعدة للنظر في احتمال وجود دوافع غيرية لدى بلير [للكذب]... ربما هو، مثل بول ولفوفيتز ومحافظين جدد آخرين، أحد تلامذة أستاذ فلسفة السياسة المعروف ليو شتراوس. فقد كان شتراوس هذا أحد أبطال شعار الكذب النبيل – الفكرة التي تقول إن من الواجب عملياً ممارسة الكذب مع الجماهير لأن نخبة صغيرة فقط قادرة ذهنياً على معرفة الحقيقة.

لقد قال شتراوس إن على الساسة أن يخفوا آراءهم لسببين اثنين: صوناً لمشاعر الناس من ناحية، وحماية للنخبة من عمليات الانتقام المحتملة من ناحية ثانية. إنها إحدى طبعات فلسفة الحقيقة المزاجية المتقلبة: الكذب لا غبار عليه طالما هو موظف

لهداية الكفار والمارقين إلى توحيد الكنيسة. أوَلَمْ يقل دون جوان بايرون Byron: «ما الكذب في التحليل الأخير؟» «إنه الحقيقة في زي تنكري».

❖ ❖ ❖

بات هذا الفيلسوف المغمور حتى الآن ذا شهرة ضيقة أو واسعة، ليس فقط في الإعلام البريطاني، بل وعلى مسرح نيويورك، بين جميع الأمكنة. فمسرحية الممثل والناشط الحركي تيم روبنز Tim Robbins المعروضة خارج برودواي، متجذر Embedded، قدمت شخصية تحمل اسم بيرلي وايت Pearly White، بالاستناد إلى شخص رئيس مجلس التخطيط الدفاعي السابق رتشارد بيرل، الذي دأب على شجب الحرب على الملأ، معلناً بوضوح، في الوقت نفسه، أن «(الفضيلة الأخلاقية لا توجد) حسب تعبير ليو شتراوس (إلا في الرأي العام الشعبي حيث تخدم قضية التحكم بالأكثرية غير الذكية.)».

ما يلفت النظر حول هذا الكابوس الشتراوسي هو أن ليو شتراوس لم يكن لديه أي رأي حول صدام حسين. فليو شتراوس كان في الحقيقة، من الأموات منذ ما يزيد على ثلاثة عقود من الزمن. وكما لاحظ الناقد تري تيتشاوت Terry Teachout بعيد البدء بعرض المتجذر، فإن آراء بيرلي وايت – لم يسبق لبيرل أن تتلمذ قط على شتراوس – لم تصدر في أي وقت من الأوقات عن شتراوس بوصفها آراءه الخاصة، بل تبدو مستمدة من مقالة نشرتها منظمة يديرها داعية نظريات مؤامرة، مجرم سابق، ومرشح رئاسي مزمن يدعى لندون إتش. لاروش، الابن، عرضاً لكتاب أستاذة علوم سياسية أو نظريات سياسية في جامعة كالغاري احترفت مهنة الهجوم على شتراوس رسالة حياتية تدعى شادية دروري Shadia Drury.

بقي شتراوس (1899 – 1973)، مؤلف خمسة عشر كتاباً، خلال الجزء الأبرز من حياته المهنية، أستاذ علوم سياسية في جامعة شيكاغو، حيث كان يدرس مادة فلسفة السياسة أو الفلسفة السياسية. كان، من جميع النواحي، أستاذاً موهوباً اجتذب بعض أفضل العقول في عالم البحث الأكاديمي، إلى قاعة صفه. أما

كيف أصبح الناس ينظرون إلى شتراوس على أنه متحالف مع حركة مثقفين شعبية مثل حركة المحافظين الجدد فمسألة تنطوي على مفارقة حقيقية. لم ينخرط شتراوس قط في الحركات السياسية السائدة في زمانه كما لم يَغُصْ في أي بحث يتناول بحث السياسة العامة. أضف إلى ذلك أن شتراوس كان يرى المثقفين طائفة شبيهة بسفسطائيي المدينة القديمة: بأناس لا يبالون بالمهابة والسلطة المصاحبتين للأفكار الحصيفة بمقدار حرصهم على السعي لامتلاك الحكمة. من شأن القراء المهتمين بالإطلاع على عرض عام لفلسفته وجذورها أن يجدوا الذيل الملحق بهذه المقالة مثيراً.

ظل الشتراوسيون ورفاق دربهم قادرين على الاضطلاع بدور مهم في السياسة والتخطيط العامين بفضل قابليتهم للتفكير عميقاً بمسائل أساسية، وصولاً إلى نواياتها الجوهرية. إن قدرتهم على سوق حجج سياسية محكمة ومدعومة بالعقل داعية إلى فرض القيود على السلوك – وهو أمر يصعب الإقدام عليه ولاسيما مع تزايد تحول ما هو صحيح إلى شيء ذي توجه تجاري – أي اختياري، إذن – حجج ملأى بالإحالة على مواثيق أمريكا التأسيسية، جعلتهم رديفاً قوياً للمحافظين التقليديين، رديفاً أقل قدرة على اجتراح حجج علمانية، ولكنه قادر على فهم مثل هذه القضايا عبر موشور الإيمان.

لقد لعب قلق شتراوس من احتمال انزلاق سياسة الحرية إلى درك الخلاعة التي تشكل خطراً على الطابع الجمهوري للنظام الأمريكي، ورفضه لإبدال لغة القيم بلغة الفضائل، دوراً ذا شأن في النقاشات الدائرة خلال السنوات القليلة الأخيرة حول سياسة المخدرات، إصلاح نظام الرفاه، والتعليم. ومن الشتراوسيين الذين أعادوا تفعيل مثل هذه النقاشات في إدارة بوش كل من الطبيب الدكتور والأستاذ الجامعي لمادة الفكر الاجتماعي بجامعة شيكاغو ليون كاس Leon Kass الذي يرأس الهيئة الرئاسية للأخلاق الحيوية البيو إثكس Bioethics، جون بي. والترز John P. Walters، الذي يعمل في فريق الرئيس بوش مديراً لمكتب السياسة القومية لمراقبة المخدرات، ويوجين دبليو. هيكوك Eugene W. Hichok، أستاذ مادة الإدارة بكلية

دكنسون سابقاً، الذي يشغل منصب نائب وزير التعليم. كذلك شغل الشتراوسيون مناصب مهمة في إدارات ديمقراطية، وإن بأعداد أقل. فالأستاذ الجامعي وليم غالستون William Galston من جامعة ماريلاند عمل مساعداً رديفاً للرئيس كلنتون في السياسة الداخلية، واضطلع بدور مفتاحي في وضع الخطط الاجتماعية.

غير أن مجال السياسة الخارجية هو الميدان الذي مكّن الشتراوسية والشتراوسيين من اجتذاب القدر الأكبر من الاهتمام مؤخراً. صار الشتراوسيون يشغلون أدواراً ذات شأن في السياسة الخارجية الأمريكية خلال الإدارة الريغانية، متولين معالجة ملفي الدبلوماسية الشعبية وحقوق الإنسان. فالأستاذ الجامعي ناتان تاركوف Nathan Tarcov من قسم العلوم السياسية بجامعة شيكاغو عمل في هيئة التخطيط السياسي لدى وزارة الخارجية، في حين كان كارنس لورد Carnes Lord، وهو الآن في كلية الحرب البحرية، مديراً للاتصالات الدولية وتخطيط المعلومات لدى مجلس الأمن القومي. أما أستاذ الكلية في مدرسة بول إتش. نيتزه للشؤون الدولية العليا بجامعة جونز هوبكنز، تشارلز فيربانكس Charles Fairbanks، فقد عمل مساعد نائب وزير خارجية لشؤون حقوق الإنسان والقضايا الإنسانية، وأستاذ فلتشر جونز لمادة الفلسفة السياسية بكلية كليرمونت ماكّينا، مارك بليتز Mark Blitz، كان مساعد مدير وكالة المعلومات الأمريكية. من خلال معرفتهم لكيفية تأسيس أمريكا نظاماً يعشق الحرية والحريات التي يتعذر التفريط بها، تمكن هؤلاء الشتراوسيون مع آخرين من تقديم مرافعة مقنعة ومبدئية دفاعاً عن معاداة الشيوعية الأمريكية، الأمر الذي يفسر سبب كون هذا العدد الكبير من الشتراوسيين قد عملوا في إدارة ريغان – عدد أكبر حتى ممن يخدمون إدارة جورج دبليو. بوش.

إن منشورات تيار رئيسي بريطانية وأمريكية – مثل الديلي تلغراف، النيويورك تايمز، هاربرز، وغيرها ترى دوراً شائناً يلعبه الشتراوسيون في إدارة جورج دبليو. بوش وفي التحريض على الحرب العراقية. قيلت أشياء كثيرة عن حقيقة كون نائب وزير الدفاع بول ولفوفيتز قد تابع دراسته الجامعية مع آلن بلوم Allen Bloom في

كورنيل (كما تخلد عبر شخصية فيليب غورمان في رواية شاول بيلو Saul Bellow عن بلوم الصادرة في 2000 بعنوان رِفلْشتاين Revelstein ومع ليو شتراوس طالباً في الدراسات العليا بجامعة شيكاغو. نحن لا نعرف بالضبط مدى تأثير شتراوس في ولفوفيتز. غير أننا نعلم، من كتاب ملاحظات جيمس مان James Mann الذي يحمل عنوان: آلهة النار: صعود فريق بوش الحربي، أن ولفوفيتز لم يتابع سوى دورتين اثنتين مع شتراوس في معهد الدراسات العليا، وكانت أطروحته للدكتوراه حول تحديات محطات إزالة الملوحة العاملة بالطاقة النووية في الشرق الأوسط، قد كُتبت مع استراتيجي الردع المعروف ألبرت وهلْسَتَر Albert Wohlsetter. ومن الآخرين الذين يمكن أن يُصنفوا في خانة الشتراوسيين الذين لعبوا دوراً في تأييد الحرب يُذكر كل من رئيس تحرير الـ ويكلي ستاندارد وليم كرستول، المدير التنفيذي لمشروع القرن الأمريكي الجديد، غاري شميت Garry Schmitt، وآبرام شولسكي Abram Shulsky من مكتب الخطط الخاصة في البنتاغون.

ليست ماري ويكفيلد المعلقة الوحيدة التي رأت أن الشتراوسيين حاولوا، تماماً كما فعل أفلاطون حين وظف كذبة الجمهورية النبيلة، ترسيخ خرافة أسلحة دمار شامل في العراق بهدف اصطناع التأييد للحرب. (ترمي الكذبة النبيلة في الجزء الثالث من كتاب الجمهورية، إلى إقناع مقاتلي المدينة بقبول وضعهم بوصفهم حَمَلَة رماح متميزين بنكران الذات دفاعاً عن النظام عبر جعلهم يؤمنون بطبيعة النظام وبالتراتب الهرمي الصريح لأرواحه – (الذهب للحكام، الفضة للمقاتلين، والبرونز للحرفيين). إن التهمة التي توجهها ويكفيلد وآخرون لا تنصف التبجيل الذي يتناول به شتراوس أياً من المواطنين أو التحديات المنتصبة في وجه فنون السياسة الديمقراطية. فهذه الدعوى تخفق، في الحقيقة، في اجتياز امتحان الضحك. لقد كان صدام حسين فريداً بين الطغاة المعاصرين باستخدامه أسلحة كيميائية ضد شعبه بالذات. ما من وكالة استخبارات رئيسية إلا وكانت مقتنعة بامتلاك العراق لبعض برامج أسلحة الدمار الشامل. أضف إلى ذلك أن الحرب كانت لها مسوِّغات أخرى: تحرير العراقيين من طاغية متجبر، الشروع في عملية تحويل الشرق الأوسط،

وتحرير القوات الأمريكية من ضرورة البقاء في العربية السعودية لحماية النظام [السعودي] من صدام.

يبدو أن لعناصر التأييد الشتراوسية المميزة للحرب أسساً فكرية كثيرة في فكر شتراوس. أولاً: كان شتراوس يسعى إلى إحياء الوعي بمخاطر الاستبداد، لما ينطوي عليه من تهديدات من ناحية، ولتحدي «العلوم الاجتماعية المبرأة من القيم»، العاجزة، بمنهجيتها العلمية، المحايدة، عن تقديم أي نقد لمثل هذه الأنظمة الاستبدادية من ناحية ثانية. ثانياً: ثمة فكرة «تغيير الأنظمة، وسيلة لإحداث تغييرات جذرية». أكد شتراوس، مثل أرسطو، أولوية النظام بالنسبة إلى صياغة نمط حياة المدينة. يرى ستفن لنزنر ووليم كرستول أن «تأييد الرئيس بوش لمبدأ (تغيير الأنظمة) ليس نتاجاً عديم القيمة كلياً لقيام شتراوس بإعادة الروح لفكرة النظام»[3]. وجنباً إلى جنب مع نوع من التركيز على النظام، هناك، على ما يبدو، فكرة شتراوسية ثالثة متمثلة بإقرار حقيقة أن على أنظمة الحكم الديمقراطية الليبرالية، في أي صدام مع دول شمولية أو تسلطية، أن تتحرك ضد الشخصية وأن تبقى دائمة اليقظة، إذا جاز التعبير.

مع أن كثيرين من الشتراوسيين المرموقين أيدوا حرب العراق بطريقة ما، فإن عدداً منهم عبروا عن الشكوك، وراء الكواليس وأمام الملأ على حد سواء. ثمة، على ما يبدو، في حقيقة الأمر، عدد كبير من التسويغات النظرية في فهم شتراوس للسياسة، للاعتقاد بأن شتراوس المعادي للطوباوية ربما كان متشككاً إزاء أجزاء من مشروع الحرب – ولاسيما فكرة أن تغيير النظام من شأنه أن يساعد، كما اعتقد بعض المؤيدين الأكثر حماسة، على جلب الديمقراطية إلى العراق.

وهنا، قد يكون نوع من التركيز على جمهورية أرسطو مفيداً. من نافل القول إن أي استنتاج من نص معين محفوف بالمصاعب، غير أن كلام أرسطو الأساسي عن دور النظام جوهري. فالنظام هو الحقيقة الأولى بالنسبة إلى السياسة، ولكنه كما يلاحظ أرسطو، ليس حقيقة السياسة الوحيدة. يشبه أرسطو مؤسس أي نظام، الإنسان لذي يضفي الترتيب على الجماعة، بنحّات يعطي شكلاً للمادة. إلا

أن لتلك المادة حدوداً مميزة على صعيد الشكل الذي يمكنها أن تأخذه سواء عبر نوع من التأسيس، أو من «إعادة التأسيس» بعد زمن الحرب[4]. علاوة، من شأن معرفة شتراوس الخاص لمدى هشاشة الديمقراطية، كما صور نشوءها في الفلسفة السياسية الحديثة في مواجهة دعاوى لاهوتية مطالبة بالسيادة السياسية، أن تكون قد شكلت تحذيراً من حشد التحديات الهائل على الطريق.

باختصار، لعل من الأفضل بالنسبة إلى أولئك الذين يعارضون الحرب في العراق، والذين كانوا سيلقون اللوم على تأثير فيلسوف غير معروف نسبياً في فريق إدارة بوش من المحافظين الجدد، أن يوجهوا أنظارهم إلى مكان آخر: ربما حتى إلى شتراوس نفسه وجملة الأعمال الكلاسيكية التي أعاد الروح إليها دعماً لنظرتهم القائمة على الزعم بأن هناك حدوداً مميزة للشكل الذي يمكن لأي عراق ما بعد صدام أن يأخذه.

تعليق على فلسفة ليو شتراوس

كرس شتراوس حياته للتعليم الليبرالي بأوسع المعاني عبر الدراسة المتواصلة للقضايا الأساسية. تمثلت رؤيته الأم بأن أعظم عقول الماضي وفرت أوضح البوابات المفضية إلى فهم وضعنا المعاصر، بعيداً عن الرطانة والأطر الموروثة التي تؤطر آفاقنا فتحد، بالتالي، فهمنا.

فكتبه، ومنها المدينة والإنسان (1964)، أفكار حول ماكيافيلي (1958)، والحق الطبيعي والتاريخ، تبدو، لهذا السبب، كما لو كانت تعليقات على أهم الكُتّاب في التراث الغربي. وكما قال تلميذ لشتراوس كتب مؤلفاً كان الأكثر بيعاً في 1987 بعنوان إغلاق العقل الأمريكي، هو المرحوم آلان بلوم (1930 – 1992) فإن «كتاباته كانت تجريبية ولكنها خطوات أكثر رسوخاً وثقة باطراد باتجاه فهم الكُتّاب كما فهموا أنفسهم وصولاً عبر ذلك إلى جعل البدائل الأساسية واضحة مرة أخرى أمام الناس الذين تعرضت خياراتهم للإفقار». تبقى كتابات شتراوس، باختصار، أبحاثاً وخطابات فلسفية لا علاقة لها بالعقيدة الجامدة

(الدوغما) لأي حركة سياسية. لا يتم تتويج فكره بأي برنامج سياسي، بأي شعارات أو مقاربات "قوالب جاهزة" للسياسة العامة. بقي متركزاً، بدلاً من ذلك، على كيفية قراءة الكتب. وبوصفها تعليقات، لا تؤدي كتابات شتراوس إلى تسليط الأضواء عليه هو، بل يبقى تركيزها، بالأحرى، على فكر آخرين.

لعل أفضل صور مأزق الإنسان، بنظر شتراوس، هي صورة الكهف في الجزء السابع من جمهورية أفلاطون. فصورة أهل الكهف المقيدين بما يمنعهم من رؤية أي شيء عدا ظلال صور منعكسة على الجدار، تلك إن هي إلا صورة مجازية للمدينة القديمة، لأن فكرة بقاء الناس مقيدين بالآفاق تشكلت، بمعنى من المعاني، من طينة الآراء السائدة في عصرهم. حاول شتراوس أن يهرب من الكهف ويوجه روحه نحو الأنوار المبهرة للشمس، عبر الدراسة المتأنية والمدققة لعقول الماضي العظيمة.

مع أن الوضع السياسي قد يكون قريباً، بمعنى ما، من كهف أفلاطون، فإن شتراوس كان يرى أن هناك فروقاً واضحة بين الأنظمة جعلت بعضها أفضل بكثير من بعضها الآخر. كان يرى نفسه صديقاً للديمقراطية الليبرالية، على المستويين العملي والنظري كليهما. كان شاهداً على جملة فظاعات الفاشية على نحو مباشر في بلده ألمانيا، وبقي شديد الامتنان لأمريكا على الملاذ الذي وفرته له لدى فراره من براثن النازيين. والأكثر أهمية هو أنه أدرك أن الديمقراطية الليبرالية هي البديل الكريم والعادل الوحيد المطروح على الإنسان الحديث.

غير أن شتراوس ما لبث أن اكتشف أن الليبرالية مهددة نظرياً بالإيمان المدعم فلسفياً، ذلك الإيمان الذي نشأ وتطور في ظل الحداثة، بأن عقل الإنسان عاجز، وحده ودون مساعدة، عن الاهتداء إلى مبادئ دائمة. ومن هنا، فإن الفكر الغربي قد تشكل بفعل ما أطلق عليه شتراوس اسم التوتر بين البديلين الأكثر إقناعاً وإلزاماً لاجتراح رواية شاملة للكل: العقل والوحي [العلم والإيمان بلغة السادات – المعرب] أو بين أثينا والقدس كما أفاد شتراوس مجازياً. ومع أن شتراوس تخلى عن اليهودية المتزمتة (الأصولية – الأرثوذكسية) التي نشأ عليها في شبابه، فقد بقي متمسكاً بالإنجيل، بالكتاب المقدس، بوصفه كتاباً جدياً، بالوحي على أنه

مصدر الأساس الأكثر رسوخاً للأخلاق، وبنقد إلحاد رجالات التنوير الأكثر تشدداً.

بعد قيام الفلسفة السياسية الحديثة المبكرة، ولاسيما في عصر التنوير، بنزع القناع عن دعاوى الوحي باسم العقل، جاءت الحداثة المتأخرة لتتولى إنجاز مهمة كشف النقاب عن مزاعم العقل. فالأهمية المتزايدة المسبغة على التاريخ في الفلسفة منذ جان جاك روسو Jean Jacque Rousseau (1712 – 1778) كانت تعني أن الطبيعة لم تعد نبراساً للإنسان. وتنامي الوعي التاريخي كان تهديداً استثنائياً للولايات المتحدة، لنظام شيد على أساس الحقوق الثابتة المسبغة على الإنسان من قبل آباء أمريكا المؤسسين. فالنزعة التاريخية المتطرفة، كما تتجلى في كتابات فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844 – 1900) ومارتن هايدغر Martin Heidegger (1889 – 1979)، جعلت الدفاع عن العقلانية الفكرية – الثقافية والنزعة الجمهورية الديمقراطية متزايد الصعوبة. ونظرة نيتشه القائمة على القول بأن العقائد إن هي إلا قيم، إن هي إلا من صنع الإنسان، مهدت الطريق إلى النسبية الثقافية، كما إلى النزعة العدمية.

في مواجهة أزمة الغرب، في مواجهة النزعتين التاريخية والنسبية خصوصاً، تحول شتراوس نحو مؤلفي الماضي العظام. فعلى النقيض من معظم معاصريه، أصر شتراوس على السعي إلى فهم أولئك المفكرين كما فهموا أنفسهم، دون أن يفترض أن آراءهم كانت مصنوعة أو محدودة بالأزمان التي عاشوا فيها. لعل هذا الرفض للإجراء البحثي المعتمد المألوف في النظرية السياسية هو الذي قاد شتراوس، ولو جزئياً، إلى أن يصبح مكروهاً لدى عدد كبير من زملائه في الاختصاص.

ما لبث انشغاله بفلاسفة العصر الوسيط، وخصوصاً الفيلسوف الإسلامي المعروف الفارابي (حوالي 870 – 950)، أن أوصله إلى اكتشاف فن القراءة الذي سرعان ما اشتهر بإتقانه له، فن الحرص الشديد على التقية، أسلوب الفلاسفة المعتمد لإخفاء أفكارهم الأكثر بعداً عن التقليد، وعلى الاستعراضية المبسطة، أسلوب الفلاسفة المعتمد لتقديم تعاليمهم على أنها جديرة بالترحيب. ففي تعليقه على

أفلاطون، لاحظ الفارابي أن أفلاطون لم يكن يشعر بأي حاجة للكشف عن الصيغة الأشمل لتعاليمه أمام الجميع، مفضلاً، بدلاً من ذلك، إخفاء أكثر أف

أفكاره أهمية. رأى شتراوس أن التقية، كما استخدمها الفارابي، كانت أيضاً قد استُخدمت، بالمثل، من قبل الفيلسوف اليهودي القروسطي موسى الميموني Moses Maimonides (1135 – 1204)، الذي كان هو نفسه قد تعلم الفن من فلاسفة السياسة القدماء.

درج الفلاسفة على توظيف الكتابة الاستعراضية المبسطة لتقديم جملة الآراء المرغوبة أو التقليدية المخبئة في الغالب أفكاراً نخبوية خفية صحيحة ولكن إعلانها للملأ متعذر. والحاجة إلى النزعة الاستعراضية القائمة على التبسيط، أسلوباً بلاغياً للدفاع عن الفلسفة أمام الملأ، يمكن أن نتحراها في قيام أثينا بإصدار حكم الإعدام على سقراط بعد تجريمه باللاتقوى وإفساد الشبيبة. كانت للنزعة الاستعراضية المبسطة أغراضاً كثيرة: الحيلولة دون ملاحقة الفلاسفة واضطهادهم، تجنب الأذى الذي يمكن أن يلحق بالمجتمع وتقاليده جراء المحاكمات الفلسفية العلنية، والعمل، أخيراً، على تدريب وتأهيل العقول الفلسفية القليلة القادرة على القراءة الواعية والمتعمقة. وأسلوب الحوار الذي اعتمده أفلاطون في كتاباته مناسب جداً للنزعة الاستعراضية التبسيطية لأن عوامل كثيرة مثل المشهد المسرحي، التمثيل، وتنوع الشخصيات، توفر خلفية ملائمة لإبراز مرامي المؤلف. ومع أن شتراوس حقق نجاحاً مؤكداً في إثارة قدر أكبر من الاهتمام بكل من نزعتي التقية والاستعراض التبسيطي مقارنة بأي فيلسوف حديث، فإن من المؤكد أيضاً أنه لم يكتشفهما. إن حضورهما وممارستهما كانا منطويين على قدر عظيم من الأهمية بالنسبة إلى مفكري القرن السابع عشر الأحرار ومؤلفي الموسوعة (الإنسيكلوبيديا) (دائرة المعارف) في القرن الثامن عشر، بين آخرين.

أفضت إعادة اكتشاف شتراوس للفلسفة السياسية الكلاسيكية إلى تعميق فهمه للمعضلة الحديثة. برأي القدماء، كان ترتيب شؤون المدينة عن طريق النظام (البوليتيا Politeia باليونانية) يحدد نمط حياة مواطنيها، موجهاً إياهم نحو نموذج

محدد من الفضيلة عبر فهمه للعدالة. كانت المدينة تسعى إلى إعلاء شأن هذه الفضيلة من خلال قوانينها وأعرافها. قامت الفلسفة السياسية الكلاسيكية على رفض الإيمان بأن فضيلة المدينة هي الفضيلة الأسمى للإنسان، مصرة، بدلاً من ذلك، على التطلع إلى ما وراء المدينة بحثاً عن الحياة المنسجمة مع العقل والمنطق بوصفها الأعلى.

أما الفلسفة السياسية الحديثة، بدءاً بماكيافيلي، فقد قامت على رفض كل من المدينة القديمة والفلسفة السياسية الكلاسيكية لمبالغتهما في رفع مستوى المعيار بالنسبة إلى الإنسان، بما يبقيه فريسة لتقلبات الأقدار والحظوظ. فبدلاً من السعي إلى أفضل النظم السياسية الممكنة، أو إلى ما ينبغي أن يكون كذلك، تقوم الفلسفة السياسية الحديثة بالتركيز على ما يمكن تحقيقه أو بلوغه. لعل مفتاح الفلسفة السياسية الحديثة هو المشروع العلمي الحديث؛ مشروع «غزو الطبيعة لإراحة الإنسان» كما فهمه فرانسيس بيكون Francis Bacon (1561 – 1626).

أقدم فرسان الحداثة، برأي شتراوس، على خفض سقف ما تستطيع السياسة أن تنجزه. فبدلاً من الإيمان، على غرار المدينة القديمة، بأنها قادرة على التعبير عن أفضل أنماط الحياة الممكنة وعلى إعلاء شأن الفضيلة، اكتفت الليبرالية الحديثة بتأكيد الشروط المسبقة للحياة، للحرية، ولطلب السعادة.

مع أن شتراوس يتعرض للهجوم بسبب الدفاع عن المدينة القديمة ضد الدولة الحديثة، فإنه قد بين بوضوح كيف أن الجمهورية الأمريكية كانت، في الحقيقة، متوفرة على ما يمكّنها من استيعاب بعض أفضل سمات العالم القديم. وكما يلمح أرسطو في كتاب السياسة، فإن ادعاء كل مدينة لاعتماد العدالة، رغم أن السياسة، بالمعنى القديم، معمارية، يبقى ادعاء غير كامل على نحو ما. إن الديمقراطية القديمة التي قامت على اختيار الحكام اعتباطياً بالقرعة كانت أكثر اتصافاً بالتسووية من نواح أساسية، مقارنة بالديمقراطية الليبرالية الحديثة القائمة على انتخاب الرسميين الذين يطالبون بالحكم. كثيراً ما كانت الأرستقراطية القديمة، المستندة إلى ادعاء صفات الروعة التقليدية، تخفق في تلبية

مطالب الإنسان العادي. وقد رأى شتراوس أمريكا نظاماً مختلطاً، جامعاً، كما كان قد فعل بعض أفضل النظم القديمة، دعاوى التميز والروعة عن طريق الانتخاب – انعكاساً للأرستقراطية بمعنى ما، مع التمثيل بديلاً عن الديمقراطية المباشرة.

كان شتراوس يرى أمريكا جمهورية ديمقراطية، نظاماً بحاجة إلى الانتباه إلى نوع من أنواع الفضيلة الأهلية ونكران الذات، للحفاظ على نفسه بأكبر قدر من النجاح. وهذه الفضيلة الأهلية باتت، بدورها معرضة لنوع من التهديد جراء نزوع الليبرالية نحو قدر أكثر مباشرة من الأنانية والخلاعة.

كما أرسطو، أدرك شتراوس دور العالم السياسي المتمثل برؤية النظام من منظور المواطن، بتقويم نقاط قوته ومواطن ضعفه، خصوصاً تلك النابعة من الفهم الجزئي للدعاوى التي يطلقها، مع العمل، بحذر، على توسيع دائرة فهم النظام لذاته عندما يكون ممكناً. لذا فإن شتراوس وطلابه يولون انتباهاً خاصاً للدعاوى التي أطلقها مؤسسو النظام الأمريكي في إعلان الاستقلال، في الأوراق الاتحادية The Federalist Papers، وفي الدستور. معمقاً قدراً غير قليل من التقدير لكل من جفرسون، هاملتون، وماديسون، عكف شتراوس، ومعه طلابه وتلامذته، وعلى الأخص المرحوم هيربرت ستورنغ Herbert Storing ومارتن دياموند Martin Diamond على الدفاع عن النظام الأمريكي بوصفه نظاماً جمهورياً ديمقراطياً، تجارياً، حديثاً ضد أولئك اليساريين الذين ظلوا يصرون على أن أمريكا بلوتوقراطية من جهة، وأولئك اليمينيين الذين ظلوا يزعمون أن جذورها ممتدة في أتربة المبادئ الدينية من الجهة المقابلة.

انسجاماً مع تقويمه الحصيف لما يمكن للسياسة الحديثة أن تحققه، علق شتراوس أهمية خاصة على التهديدات الموجهة إلى النظام الجمهوري الديمقراطي من الليبرالية الأنانية التائهة من ناحية والنزعة التسووية المتطرفة من ناحية أخرى. وفي زحمة هذه الأسباب، ما لبث شتراوس وتلامذته أن أصبحوا عاملاً محورياً من عوامل إعادة اكتشاف ألكسس دو توكفيل (1805 – 1869)، ذلك الأرستقراطي

العظيم الذي قدم كتابه الديمقراطية في أمريكا، الدراسة المعمقة والشاملة الأولى لكيفية قيام مبدأ المساواة الديمقراطي بصياغة وتأطير كل مناحي الحياة في أي عصر ديمقراطي – مع كيفية الاهتداء إلى الأسلوب الناجح لتصويب نزوع العصر الديمقراطي إلى الاستبداد.

لعل أهم الدروس السياسية التي استوردها شتراوس لطلابه هو درس حدود النزعة الطوباوية. لقد كان هذا، بزعم شتراوس، أساسياً لفهم جمهورية أفلاطون. أكثرية التفسيرات المدرسية تفهم الجمهورية حرفياً، خصوصاً الاقتراح الخاص بحكم الملك – الفيلسوف، على أنه أفضل طرق تنظيم المدينة والوسيلة الوحيدة لإنهاء العلل؛ تميل إلى إدانة أفلاطون لأنه شمولي. غير أن شتراوس يجادل أن أفلاطون لم ير حكم الفلاسفة قط احتمالاً واقعياً لأن حياة الفلسفة تتطلب نمط التساؤل المطرد الذي من شأنه أن يعزل عن المدينة ومصالحها. يرى شتراوس، بدلاً من ذلك، أن الجمهورية مصممة للكشف عن حدود ما يمكن للسياسة أن تنجزه.

بعد دحر الفاشية، تركز اهتمام شتراوس السياسي على خطر الاستبداد، خطر استبداد كوني شامل تحت قناع الفلسفة الماركسية. وهاجسه بشأن مثل هذا الاستبداد يتجلى بأوضح صوره في حواره مع الفيلسوف الهيغلي – اليساري الذي ما لبث أن أصبح أحد بيرقراطيي السوق المشتركة، ألكساندر كوجييف Alexander Kojieve، الذي رأى رسالة حياته المتمثلة بتحقيق دولة كونية، عقلانية تجسيداً لمسيرة التاريخ الحتمية. ظل شتراوس، بالمقابل، يرفض فكرة الدولة الكونية العقلانية، نابذاً الحكومة العالمية لاحتمال إذعانها لخطر الاستبداد الحديث، وهو القادر، بفضل التكنولوجيا الحديثة، على التسبب بأهوال أسوأ بكثير من تلك التي سبق لدول المدن القديمة أن شهدتها.

كان شتراوس استثنائي الانزعاج جراء إنكار منظري الاقتصاد والمؤرخين لمكانة السياسة المحترمة عبر الإصرار على أن القوى غير البشرية، مثل الأسواق، هي المحركات الرئيسية للتاريخ. وقد رأى هذا النزوع لدى مؤرخي الأزمان الديمقراطية، كما سبق لتوكفيل أن حذر، إنكاراً لقدرة أفراد مهتمين بالحياة

العامة على أن يساهموا مساهمة كبيرة وأساسية في صياغة مصائر الإنسان. وبالمقابل، فإن شتراوس أطرى رجل دولة عظيم مثل آبراهام لنكولن Abraham Lincoln الذي وفر الحماية للوحدة ودافع عن مبادئ الثورة الأمريكية، وونستون تشيرتشل الذي استوعب وتولى قيادة النضال ضد الدكتاتوريتين الفاشية والشيوعية. قدم تشيرتشل، بنظر شتراوس التجسيد الحي الأعظم لرجل الدولة.

الهوامش:

1. تمت الإفادة من مقالة «ملحق:" ليو شترٰوس وتاريخ الفلسفة السياسية"» تأليف: توماس بانغل Thomas Pangle وناتان تاركوف، في كتاب تاريخ الفلسفة السياسية، تحرير: ليو شترٰوس وجوزف كروبسي Joseph Cropsey (شيكاغو: مطابع جامعة شيكاغو، 1987). مقالة «ليو شترٰوس: 1899/9/20 – 1973/10/18» بقلم آلان بلوم، في كتاب من تأليف بلوم نفسه بعنوان عمالقة وأقزام (نيويورك: سايمون آن شستر، 1990)، ومقالة مارك بليتز «ممارسة الحكم ومدرسة شترٰوس، في كتاب من تحرير كنث إل. دويتش Kenneth L. Deutsch وجون إي. مورلي John A. Murley بعنوان: ليو شترٰوس، الشترٰوسيون، ودراسة النظام الأمريكي (لانهام إم. دي: ومان آند لتلفيلد، 1999). مدين أنا بالامتنان لكثيرين منهم هيلل فرادكن Hillel Fradkin، مونتغومري براون Montgomery Brown، مارك بليتز، ووليم شامبرا William Schambra لتقاسمهم رؤاهم معي. كذلك ممتن أنا كثيراً لماتيو روزنبرغ Mathew Rosenberg على توفير المساعدة البحثية لي.
2. 2004/1/9
3. ستيفن لنزنر ووليم كرستول «ما الذي كان ليو شترٰوس ساعياً إليه؟» ببليك، إنترست، خريف 2003.
4. قارن مع كتاب المدينة والانسان تأليف: ليو شترٰوس (شيكاغو ولندن، مطابع جامعة شيكاغو، 1964).